



الدّرس النّحويّ عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائريّ بين التّقليد والتّجديد نماذج تحليليّة

The grammar in the view of the Algerian scholar
Sheikh Mohamed El Khodr Hocine between classicism
and modernism Analytical models

د. شحرزاد بن يونس

chahrabentoumi@gmail.com

جامعة الإخوة منثوري قسنطينة 1

تاريخ القبول: 2020/11/16

تاريخ الإرسال: 2020/04/07

أ. الملخّص:

تقف هذه الورقة البحثية عند تحليل ومناقشة أهمّ الأفكار اللّغوية التي تقدّم بها أحد العلماء الجزائريين، وهو الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائريّ التّونسي، الذي تقدّم لنا بمجموعة من المؤلّفات في مجال النّحو، فهو من اللّغويين الذين اهتموا بالعربية اهتماما تقعيديا؛ وراحوا يُعَنُون بالقواعد العامّة المستنبطة من كلام العرب، واضعين أصولها النّحوية، وباحثين في تفسيراتها الدّلالية. ونظرا لهذه المكانة العلمية التي تبوّأها هذه الشّخصية في زمانها، فقد اتّخذناها موضوعا لهذه الدّراسة، وهدفنا من ذلك هو بسط النّظر في مؤلّفات هذا العالم الجليل، خصوصا تلك التي استثمر فيها آراءه النّحوية، وهذا بغاية الكشف عن مكانته العلمية وموقفه من دعاة التّجديد في النّحو؛ لنجيب عن تساؤل جوهريّ مفاده: هل كان هذا العالم الجليل تراثيا بامتياز معاديا لكلّ دعوات تيسير النّحو، أو كان مجدّدا تقدّم بأفكار مخالفة لما عرفه الدّرس النّحويّ القديم؟ وقد أسفرت



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس
الإجابة عن هذا التّساؤل إلى نتيجة توصلنا إليها، هي ذات أهميّة في البحث اللّسانيّ
المعاصر، حيث سجّلنا مدى وفاء هذا العالم اللّسانيّ للتراث اللّغوي العربي، كما وقفنا
على أفكاره اللّغوية التّجديدية التي تقاطعت بعضها مع أفكار اللّسانيين المحدثين.
الكلمات المفتاحية: التّحو، الشّيخ محمّد الخضر حسين، التّجديد، التّقليد، التّراث
النّحوي.

I. ABSTRACT:

This research seeks to analyze, interpret and debate the thoughts of one of the famous Algerian scholars; Sheikh Mohamed El Khodr Hocine, and his valuable grammatical researches. He is one among the scholars who studied the rules of the Arabic language and were interested to the general rules, which derived from Arabs speech .

They also established their grammatical principles and searched for the progress of semantic terms. As well, they were studying the phonology, pronunciation of the Arabic language beside their glossary and rhetorical interests, trying to give a new lecture to the literary Arabic patrimony.

The importance of this study consists of reading, analyzing the researches of this eminent scholar, that are carried out in the beginning of the 20th century, in which he integrated sometimes his old and new grammatical views with commentary, and in other times, he gave the opponent opinions. By this method, he could obtain interesting results in the modern linguistic research .

In this research, we will try to debate this study by answering the following questions: Was this eminent scholar faithful to the literary Arabic heritage? What are the new



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

grammatical rules that he presented as an alternative of the ancestor's views?

To what extent did Mohamed El Khodr Hocine succeed in understanding, analyzing and criticizing the grammatical researches?

Keywords : Grammar ; Sheikh Mohamed El Khodr Hocine ;Renewal; Tradition; Grammar Heritage.

1. المقدّمة:

لقد عرفت اللّغة العربية في رحلتها الطّويلة عبر الأزمنة اهتماما واسعا من طرف الدّارسين المتخصّصين في شتّى المجالات؛ إذ تتبعوا خصائصها الصّوتية والصّرفية والتركيبية والدّلالية، كما توسّعوا في جوانبها البيانية والبديعية، وبحثوا في تنوّع أساليبها، ولقد ساعد على هذا البيئة العامة التي نشأت فيها العربية في مستوياتها الثقافية والاجتماعية والجغرافية.

لقد مثّلت هذه الظروف «التّربة الخصبة التي تهيّأت كي ينبت فيها الدّرس اللغوي يانعا مزدهرا، ثم توفّرت الدّوافع الخاصّة التي كانت خدمة القرآن وصورن اللّغة من اللّحن أبرزها جميعا»¹، ممّا يسّر نشأة الدّرس اللغوي وزاد في تطوره منذ الأعمال المبكّرة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، وابن دريد، والأزهري، وابن فارس، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم. خصوصا وأنّ الفساد اللّغوي قد عرف توسّعه على يد الأعاجم الذين دخلوا الإسلام، وأبعدوا العربية عن القواعد الإعرابية فظهرت في ألسنتهم أخطاء تمسّ أواخر الكلم كظاهرة التّسكين، هذا الأخير الذي شاع في فترة الفتوحات الإسلامية. ناهيك عن المساس بقداصة الخطاب القرآني عن طريق تسرّب اللّحن إلى تلاوة

¹ - محمّد حسين آل ياسين: الدّراسات اللّغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ط1، 1980م، ص 29 من المقدّمة.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

القرآن، مما أدّى إلى تغيّر المعنى، وقد حفّز هذا أبا الأسود الدؤلي (ت69هـ) إلى وضع النّقط ليستقيم الكلام بعيدا عن اللّحن، وقد كان هذا العمل النّواة الأولى لنشأة (علم النحو) في البصرة ثم في كلّ البلاد العربية بعد ذلك. ومن العلماء الأوائل الذين كتبوا في علم النّحو عيسى بن عمر (ت149هـ) في كتابه (الجامع) و(الإكمال) تلاهما بعد ذلك الكتاب لسيبويه (ت180هـ) مع العلم أنّ مصطلح النّحو لم يظهر بعد حينذاك². إنّ مع هذا التّناج اللّغوي الأول بدأ الدّارسون يهتمون بالعربية اهتماما تقعيديا؛ وراحوا يُعَنَوْنَ بالقواعد العامة المستنبطة من كلام العرب، واضعين أصولها النّحوية، وباحثين في تطورات مفرداتها الدّلالية، ومستقصين لأصواتها صفة ونطقا، ناهيك عن اهتماماتهم المعجمية والبلاغية، ولقد بلغت هذه الجهود أوجّها على يد باحثين حافظوا على العربية وأحسنوا تلقينها للأجيال التي جاءت بعدهم، والتي بدورها أكملت هذه الرسالة المعرفية - كلّ في مجال نبوغه - فظهر لغويون وباحثون لسانيون في العصور القديمة، وكذا الحديثة ممّن حاول أن يعيد قراءة التراث العربي قراءة جديدة، أو ممّن حاول تبني الآراء النّحوية التي ذهب إليها القدماء دفاعا عنهم وعن مجهوداتهم.

محمد الخضر حسين الجزائري واحد من العلماء المغاربة الذين ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بمؤلفات حاول من خلالها بسط بعض الآراء النّحوية القديمة والحديثة مع التعليق عليها تارة، وتقديم آراء تخالفها من جهة ثانية، وهذا ما سنحاول مناقشته في هذه الدّراسة، مجيبين على إشكالية عامّة تدور في فلك معرفة الجهود العلمية التي بذلها محمّد الخضر في خدمة اللّغة العربية، والكشف عن مكانته ومواقفه العلمية من خلال ما قدّمه في مؤلفاته من رؤية نحوية تستحقّ التّنويه، ناهيك عن

² - ينظر: محمد حسين آل ياسين: المرجع السابق، ص 84.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

محاولتنا معرفة التّيار التّقليدي أو التّجديدي الذي ينتمي إليه هذا العالم، ويمكن تلخيص هذه الإشكالية في الأسئلة الآتية :

- هل كان محمّد الخضر حسين الجزائري التّونسي من دعاة تجديد التّحو أو كان تراثيا بامتياز يؤمن بالتّقليد؟

- إلى أيّ مدى كان الباحث الجليل وفيّا ومقلّدا للتراث اللّغوي العربي؟ ما موقفه من دعاة التّجديد وهل كان مسائرا لهم؟

- ما هي الأحكام التّحوية الجديدة التي قدّمها بديلا عن آراء القدماء، وهل كان بذلك مجدّدا؟

- إلى أيّ مدى نجح محمد الخضر حسين في فهم التراث التّحوي وتحليله ونقده؟ وهل كانت أحكامه التّقديمية موفّقة في ذلك؟

إنّ هدفنا من هذه الدّراسة من خلال الإجابة عن أسئلتها، هو الوقوف على أهمّ الأفكار التّحوية التي بثّها هذا العالم الجليل في مؤلّفاته، ومكاشفة إسهاماته التّحوية محاولا تأصيل التّحو القديم برؤية جديدة من خلال وصفه للظاهرة اللّغوية، وعبر ابتداع نماذج تحليلية جديدة في الأمثلة المستشهد بها، كما كانت غايتنا أيضا هي جمع وتصنيف أهمّ أفكاره التّحوية في حقل واحد، بعدما كانت مشتّعة في مؤلّفاته المختلفة، حتّى نتمكّن من معرفة رؤيته التّقديمية لتراثنا التّحويّ، وقد اخترنا في ذلك المنهج الوصفي القائم على استقراء وتحليل النّماذج المحلّلة وتدعيمها بالمناقشة.

وقد قسّمنا هذه الدّراسة إلى محورين رئيسيين؛ شقّ نظريّ قدّمنا من خلاله سيرة ذاتية وعلمية للعلامة قيد الدّراسة، بالحديث عن حياته، وأهمّ مؤلّفاته، وانتقلنا في الشّقّ الثّاني إلى الجانب التّطبيقي الذي خصّصناه للدّرس التّحوي في عيّنة من مؤلّفاته، حيث بدأنا الحديث عن مفهوم التّحو ومناقشة العلامة له، وانتقلنا إلى مسائل أخرى كمعاني



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

الحروف، والحركات الإعرابية، ثمّ عرّجنا على ظاهرة التّضمين، فنيابة الحروف بعضها من بعض، ثمّ أسلوب التّحذير، لنختتم دراستنا بباب القياس الذي أفردنا له مبحثا خاصّا نظرا لأهمّيته في مباحث التّحو من جهة، ونظرا لأنّ العالم الجليل قد خصّه بكتاب منفرد، عكس الظواهر التّحوية الأخرى.

2. مولده ونشأته وآثاره:

1.2 مولده ونشأته:

يمثّل العلامة الجليل محمّد الخضر حسين الجزائري قامة فكرية ولغوية في عصره، فهو واحد من الفقهاء والعلماء الذين تبوّأوا مكانة مرموقة في شمال المغرب العربي وحتى في مشرقه، ينتمي إلى عائلة العمري إحدى عائلات قرية طوالقة (طولقة) في واحدة من واحات جنوب الجزائر بمدينة بسكرة، فهي المدينة التي وُلد ونشأ فيها، المدينة التي تلقّب بالكوفة الصّغرى نظرا لما تتمتع به من حضور علميٍّ، إذ كانت موطنًا للتّحضّر عبر تميّزها بكثرة علمائها ومساجدها.

ولد محمّد الخضر في ليلة الإسراء والمعراج في 26 من رجب 1293هـ - الموافق لـ 16 أغسطس 1876م، سُمّي عند مولده: محمّد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، فلما هاجر إلى المشرق حذفت (بن) من اسمه وحُوّرت الأخضر على الخضر، عُرف في مصر بالشيخ الخضر التونسي في بداية اندماجه مع هذا المجتمع، ثمّ لما خالط المصريين متجنّسا وموظّفا أصبح اسمه محمد الخضر حسين³.

تلقّى تعليمه الأوّل في قريته حافظا القرآن بها، فلما بلغ الثانية عشرة انتقل إلى تونس مع والده وأسرته، وهناك التحق بطلب العلم في جامع الزيتونة، حيث تتلمذ على

³ - محمّد الجوّادي: محمد الخضر حسين وفقه السّياسة في الإسلام، دار الكلمة للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2014م، ص17-18.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

يد خاله (محمد المكي بن عزوز) الذي كان مدرّسا به، كما درس عل يد كبار الشيوخ حتى نال شهادة العالمية سنة 1898م، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، وبعد تخرّجه عمل معيدا في جامع الزيتونة.

ارتحل الشيخ بعدها إلى موطنه الجزائر سنة 1903م، وزار العاصمة وبعض المدن الكبرى، كما حضر الدّروس التي كانت تُلقى في معاهد العلم فيها، وألقى بعض الدّروس الدينية والعلمية هناك غير أنّه لم يستقر بها⁴.

أنشأ سنة 1904م مجلة (السّعادة الكبرى) وهي مجلة علمية أدبية نصف شهرية تهتم بالنشاط الفكري في ميدان الإصلاح الاجتماعي، وقد نجحت في استقطاب العقول بتونس، التي تولّى فيها وظيفة القضاء في مدينة بترت التونسية بعد تفوّقه في التدريس والصحافة، فقد كان بمثابة العالم الأول للمدينة، حيث مارس الخطابة والتدريس في جامعها الكبير، وما تمكّنه هذا إلا امتداد لمنهج الفكري الذي أساسه «الدّفاع من اللغة العربية، وبيان مكانتها بين اللغات، وتميّز مظاهرها في كل المستويات اللغوية مركزا على أهمية الجانب النّحوي في قواعده النظامية من جهة ودراسته العلمية من جهة ثانية»⁵، وهو في هذا لا يهمل المستويات الدلالية والاستعمالية والبلاغية التي اقتنع بها بعد أن أخذها عن أساتذته، ومن أشهرهم أبو الحاجب والعلامة الفاضل محمّد الطّاهر بن عاشور.

هاجر إلى المشرق العربي وبالضبط إلى دمشق سنة 1912، عن طريق البحر مارا بمالطة والإسكندرية، ثم توقف في القاهرة، حيث ألقى دروسا في الجامع الأزهر ثم ميناء

⁴ - محمّد الجواوي: المرجع السّابق، ص 19

⁵ - سعاد معمر شاوش: مفاهيم لسانية عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري - قراءة استكشافية لفكره النّحوي، مقال منشور بمجلة اللغة والأدب، العدد 29، ص 160 .



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

بورسعيد، وقد بقي في دمشق ما يربو عن الشهر لينتقل بعدها إلى بيروت ثم إستانبول، حيث استقر خاله وأستاذه المكي بن عزوز وكان قد فارقه مدّة خمسة عشر 15 عاما، فبقي معه مدة شهرين كاملين، ثم انتقل إلى برلين بألمانيا وقد كانت رحلاته هذه غنيّة بلقاء العلماء والأدباء الذين أفاد منهم وأفادوا منه.

وعند بقاءه في دمشق مع أخويه العالمين المكي وزين العابدين عيّن محمّد الخضر حسين مدرّسا بالمدرسة السلطانية، وألقى دروسا في جامعة الأمويين، وهناك توطّدت علاقته ببعض علمائها منهم: الشيخ البيطار والشيخ القاسمي.

عاد بعدها إلى تونس، ثم الجزائر، ثم دمشق التي استقر بها ثلاث سنوات (1913-1916)، ولما سقطت الشام في أيدي الفرنسيين سنة 1920م، هرب إلى مصر خصوصا وأنّ الفرنسيين كانوا قد حكموا عليه غيايبا بالسّجن والإعدام في تونس، لاقامه بالمشاركة في تحريض المغاربة بألمانيا وتركيا على الثورة ضد الفرنسيين في شمال إفريقيا. وقد كانت هذه الرّحلة ملاذا له لتقوية فكره، وتوسيع آفاق دعوته التي انصبّت على الحفاظ على الإسلام، وتحسين صورته عند الشّباب العربيّ الضّائع، داعيا العلماء إلى تقديم نصّحهم للأمة فيما يقولون أو يفعلون، وحثّهم على احتمال ما ينالهم في سبيل النّصيحة من مكروه⁶.

كما كانت هذه الأسباب دافعا قويا للاستقرار في مصر حتى وفاته بعد تجنّسه بجنسيتها، حيث عمل مصحّحا بدار الكتب المصرية بشفاعة أحمد تيمور باشا، الذي عرف قدره لمدّة خمس سنوات، وانتقل إلى التّقدم إلى امتحان العالمية الأزهرية، فناله

⁶ - ينظر: مختارات من تراث صاحب الفضيلة الشّيخ محمّد الخضر حسين، هديّة مجلّة الأزهر المجانية لعدد ربيع الأوّل، 1422هـ، ص 10.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

بسهولة، وحينها قال عنه أحد الأساتذة المُمتحنين: «هذا بحر لا ساحل له فكيف نقف معه في لُجاجة؟»⁷.

وهنا أصبح يلقي المحاضرات والدّروس في مساجد مصر، كما كتب المقالات المتنوعة وأنشأ حينها "جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية" سنة 1924م، وهي تقيم بالمغاربة من النّاحيتين الاجتماعيّة والثّقافيّة، وسنة 1928م شارك في تأسيس جمعية (الشّبان المسلمين)، ووضع لائحته مع صديقه محبّ الدّين الخطيب، ولما رأى التّفكّك الأخلاقي يزداد انتشارا في مصر أنشأ (جمعية الهداية الإسلاميّة) مع بعض مشايخ الأزهر منهم مصطفى المراغي سنة 1928م، وكان من أهدافها محاربة الفساد والإلحاد، والدّعوة إلى تمثين الصّلات بين الشّعوب العربيّة الإسلاميّة.

كما اختير محمد الخضر حسين عضوا "بمجمع اللغة العربيّة الملكيّة" سنة 1932م، وعضوا لهيئة كبار العلماء سنة 1950م، ثم شيخا للأزهر بعد ثورة يوليو سنة 1952، وهكذا تبوّأ مكانة كبرى مع أحد شيوخ الأزهر العظام، وقد كان قبل ذلك أحد شيوخ الزيتونة أيضا إلى أن توفّي في القاهرة في 28 فبراير 1958م، بعد أن دافع عن اللغة العربيّة والإسلام والمنطق.

2.2 مؤلّفاته:

ترك شيخ الأزهر مؤلّفات كثيرة في اللغة والفكر والرحلة والسياسة وغيرها نذكر منها: كتاب (وسائل الإصلاح) في ثلاثة أجزاء، بلاغة القرآن، تونس وجامع الزيتونة، حياة ابن خلدون، دراسات في العربيّة وتاريخها، القياس في اللغة العربيّة، أدب الرحلات، تعليقات على كتاب الموافقات للشّاطبي، إضافة إلى مئات المقالات والمحاضرات⁸.

⁷ - محمّد الجوّادي، محمد الخضر حسين وفقه السّياسة في الإسلام، المرجع السّابق، ص 29.

⁸ - ينظر: مختارات من تراث شيخ الأزهر، المرجع السابق.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

3. الدّرس التّحوي عند محمّد الخضر حسين الجزائري:

إنّ المتصفّح لمؤلفات محمّد الخضر حسين الجزائري يراه قد آثر أن يقدّم بعض الصّفحات العلمية في اللّغة العربية؛ تدور في فلك مباحث متناثرة في كتبه، منها الصّرفية ومنها التّاريخية التي تبحث في حياة اللّغة، وفضلها، ومسايرتها للعلوم والمدنية، ونراه مرّات أخرى يقدم بعض الرّؤى في مجال التّحو مفضّلا، وشارحا، وناقدا، وهذا ما سنحاول توضيحه في المباحث الموالية.

إنّ انتماء محمّد الخضر حسين إلى عضوية الجمع العلمي العربي بدمشق، وكذا جدّيته وبُعد نظره في كونه مؤسّسا جادا في مجمع فؤاد الأول للّغة العربية بالقاهرة (9)، جعله من المهتمّين بلغة القرآن الكريم تحليلا ومناقشة، في المستويات اللّسانية الصّوتية والصّرفية والتّحوية والدّلالية، ولنا في هذه الورقة البحثية أن نقف عند المستوى التّحويّ فقط، لمناقشة أهمّ المسائل التّحوية التي عاجلها شيخ الأزهر في مؤلّفاته.

1.3 موضوع علم التّحو

بدا العالم الجليل محمّد الخضر في هذا المبحث ناقدا ضليعا بمسائل التّحو، حيث تقدم برّد على كتاب "إحياء التّحو" لصاحبه "إبراهيم مصطفى"، محاولا تبيان جوانب الصّواب من جوانب الخطأ، خصوصا فيما يتعلّق بضبط مصطلح "التّحو" وتحديد مفهومه.

⁹ - عقد الجمع العلمي العربي بدمشق جلسته الأولى في 1919/07/30، وقد عمل فيه طيلة الفترة التي قضّاها في سوريا، ثم أصبح مراسلا للمجمع بعد استقراره في القاهرة. أما بخصوص مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فقد عُيّن فيه سنة 1933م، حيث ترأّس لجنة اللّهجات، وشارك في لجان: الآداب والفنون، المعجم الوسيط، وله عددا من البحوث المنشورة في مجلّة المجمع .



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

اتّجه " إبراهيم مصطفى" في انتقاداته إلى البدء بتحديد موضوع التّحوي حيث قال بأنّ النّحاة اتفقوا في تحديد مفهومه بقولهم: «إِنَّهُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ أَوَاخِرُ الْكَلِمِ إِعْرَابًا وَبِنَاءً»، وأنّ أبحاثهم التّحوية هذه كانت تعتمد على تأصيل شكليّ، لأنّهم يقصرون بحوثهم على الجزء الأخير من الكلمة فقط، ثمّ أكّد بعد ذلك أنّ تعريفهم هذا فيه تضيق شديد لدائرة البحث التّحويّ، وتقصير لمداها، وحصر له في جزء يسير ممّا ينبغي أن يتناوله¹⁰.

وقد ردّ عليه "محمد الخضر حسين" وخطأ فكرته ودعاه إلى الاطّلاع على المؤلّفات التي شرحت هذا التّعريف شرحا وافيا، مبتعدة عن سياق علم الإعراب إلى مباحث نحوية أخرى، وفي هذا يقول معاتبا: «لا ندرى ماذا صنع المؤلّف عندما وقف على هذا التّعريف الذي ساقه لعلم التّحوي، هل تجاوزه إلى مطالعة ما كتبه أهل العلم في شرحه؟»¹¹.

لقد عمد محمّد الخضر إلى تقديم أدلّة لأقوال النّحاة الذين شرحوا المقولة السّابقة بأنّ التّحوي يهتم أيضا بأحوال غير الكلمات؛ كالجمل التي لا محل لها من الإعراب، أو تلك التي لها محلّ، وكأحكام جملة الصّلة من حيث العائد، وجملة النّعت والخبر وغيرها. كما أنّ "علم التّحوي" يبحث في أحوال الألفاظ من حيث دلالاتها على المعاني التركيبيّة؛ أي المعاني التي تستفاد من إسناد بعض الكَلِمِ إلى بعض، واستشهد في ذلك بأقوال للشّاطي في "شرح الخلاصة"، والسّيّد الجرجاني في "شرح المفتاح"، موردا رأيا له

¹⁰ - ينظر: إبراهيم مصطفى: إحياء التّحوي، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثقافة، (د.ط)، 2014م، ص 17.

¹¹ - محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، ضمن سلسلة الأعمال الكاملة، المجلّد 10، دار النوادر، سورية، ط1، 2010، ص 185.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

يفرّق فيه بين موضوعات علم النّحو وعلم المعاني قائلا: «وأما عن المركّبات على الإطلاق، فأما باعتبار هيئتها التركيبية، وتأديتها لمعانيها الأصلية، فعلم النّحو، وأما باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى، فعلم المعاني»¹².

فعلم النّحو بهذا يركّز على دراسة البنية التركيبية للجملّة من خلال عناصرها؛ لهذا أكّد ابن السّراج (ت316هـ) أنّه علم استخراج المتقدّمون بعد استقراء كلام العرب¹³ غايته فصاحة الألسنة وبعدها عن اللّحن، بينما يهتمّ علم المعاني بالمعاني الثّانية التي يمكن للمفردة أن تحقّقها في سياق ما.

ثمّ نراه يدعّم فكرته بما ألع إليه ابن سيدة اللّغوي الذي اعتمد في شرحه على توسيع موضوع النّحو الذي يتجاوز أحوال الإعراب والبناء، بما أنّه انتحاء لسّمّت كلام العرب من إعراب وغيره؛ كالتثنية والجمع والتّصغير والتّكسير، والإضافة والنّسب وغيرها ليلتحق متكلم العربية بفصاحتها، ليقدم وجهة نظره أخيرا مخطئا رأي إبراهيم مصطفى قائلا: «لم يقصر النّحاة النّحو على أواخر الكلمات وتعرّف أحكامها، بل بحثوا في أحكام تأليف الكلم؛ من نحو، التّقديم والتّأخير، والذّكر والحذف، واتصال بعض الكلم ببعض، وانفصاله منه، ولا يكاد باب من أبواب النّحو يخلو من البحث في التراكيب من هذه النّاحية»¹⁴.

إنّه بمقولاته هذه يدافع على وجهة نظر النّحاة القدماء الذين لم يعاينوا الكلام من وجهة نظر شكلية محضة، بل اهتموا بالجانب الدّلالي بالموازاة، مستدلا في ذلك بذكره

¹² - محمّد الخضر حسين: المصدر السّابق، ص187.

¹³ - ينظر: ابن السّراج، أبو بكر محمّد بن سهل النّحوي البغدادي: الأصول في النّحو، تحقيق: عبد الحسّين الفتلي، مؤسّسة الرّسالة، ط3، (1417-1996)، ج1، ص35.

¹⁴ - محمّد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، المصدر السّابق، ص190.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

لأدوات التّماسك التّحوي كالتّقديم والتّأخير، والدّكر والحذف، والاتّصال والانفصال (الفصل والوصل)، وهذه القواعد التي ألح إليها القدماء قد أصبحت موضوعا رئيسا من موضوعات الاتّساق والانسجام في أبحاث لسانيات النّصّ عند المحدثين.

فكلّ هذه القواعد هي مدار بحث تفصيليّ عند الغربيين منهم رقيّة حسن، التي استعرضت قواعد التّماسك التّحوي في الإنكليزية المنطوقة والمكتوبة سنة 1968م، وزادت دراستها عمقا بمشاركتها في كتاب مع هاليداي حول التّماسك في اللّغة الإنكليزية¹⁵. كما أنّ لعالم اللّغة الهولندي فان ديك Dijk فضل السّبق في ربط التّماسك التّحوي بالسياق في كتابه (النّص والسياق) سنة 1977م، ناهيك عن مجهودات أخرى تتفق جميعها على أنّ النّصّ نسيج من الكلمات يترابط بعضه ببعض في كيان متّحد لا يتحقّق إلّا بمظهرين اثنين هما: التّماسك النّصّي (السّبك) Cohesion، والانسجام (الاتّساق) Coherence، وهو ما أراد الدّفاع عنه محمد الخضر حسين أثناء معارضته لرأي إبراهيم مصطفى الذي تحدّث عن إغفال التّحويين للجانب الدّلالي واهتمامهم ببنية الكلمة فحسب.

تبين لنا من خلال هذا المبحث أنّ محمّد الخضر حسين كان موقفه معارضا لدعاة التّجديد بما تقدّموا به من آراء، من أمثال طه حسين، ومصطفى إبراهيم، كما أنّه كان معاديا لتعريفاتهم الاصطلاحية التي قدّموها لعلم النّحو، وأنّ التعريف التقليدي للنّحو كان موقّفا من وجهة نظره؛ لأنّه يركّز على دعامتين هما: الإعراب والبناء، وهذا هو موضوع النّحو الرّئيس.

2.3 معاني الحروف والحركات الإعرابية

¹⁵ - ينظر: إبراهيم محمود خليل: في اللّسانيات ونحو النّصّ، دار المسيرة، عمّان -الأردن، ط3، 2015م، ص223 .



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

يستمرّ محمّد الخضر في إيراد أقوال إبراهيم مصطفى والرّد عليها حتى وصل إلى الحديث عن معاني الحروف والأدوات، فتقدم بوجهة نظر فريدة لم يعتمدها معاصروه، مؤكّداً أنّ مبحث معاني الحروف هو أقرب من حيث الانتماء إلى علم اللّغة منه إلى علم النّحو إذ يقول: «والواقع أنّ البحث عن معاني الحروف والأدوات لا يدخل في صلب علم النحو؛ إذ لم يكن بحثاً عن أحوال اللفظ من جهة وقوعه في التركيب، بل هو بحث عن المعاني التي وضعت لها هذه الكلم؛ أعني: الحروف، فهو إلى علم اللّغة أقرب منه إلى علم النّحو، ولكن التّحويين لاحظوا أنّ هذه الحروف روابط للتركيب، فتعرّضوا لمعانيها عند البحث عن الحال الذي يعرض لها عند التركيب، كالعمل أو الإعراب أو البناء أو الزّيادة»¹⁶. فهو بمقولته هذه ينتقد وجهة نظر التّحويين القدماء في تبويب وتصنيف المباحث النّحوية، خصوصاً في باب معاني الحروف والأدوات، الذي ينصبّ فيه الاهتمام على دلالة هذه الوحدات اللّسانية عند توزيعها في سياقات كلامية متعدّدة، مع وجوب النّظر في توسّعها الدّلالي الذي قد يجعل أداة تحلّ محلّ أداة أخرى، كما قد يحلّ حرف محلّ حرف آخر إذا شابهه في المعنى.

لقد أثر أن يصنّف البحث في معاني الحروف والأدوات ضمن حقل المباحث اللّسانية، ولكنّه من جهة ثانية يبرّر لنا منهجية النّحاة الذين وضعوها ضمن حقل النّحو، لأنّها تتصل عندهم بالتركيب، والتركيب يعتمد روابط مادّية ومعنوية لا تتحقّق إلّا بوجود هذه الحروف والأدوات، ومنه فإنّ تصنيفهم هذا - من وجهة نظره - قريب من الصّواب لهذه الأسباب.

فحرف الجرّ (على) مثلاً من الروابط المعنوية التي تتغيّر دلالتها بتغيّر السياق الذي ترد فيه، فهي قد تخرج من معنى الاستعلاء - وهو معناها الأصلي - إلى معنى الشّروط،

¹⁶ - دراسات في العربية وتاريخها، المصدر السّابق، ص 194-195



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخطّير حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

وهذا حين يكون ما بعدها شرطاً لما قبلها¹⁷، ونمثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، فحرف الجرّ في هذا المقام تغيّرت دلالته تبعاً للتّركيب الذي ورد فيه، فتحدّد على ضوئه المعنى المقصود له.

كما أنّ العدول في حروف العطف كثيراً ما يحصل في النظم القرآني، خصوصاً عند أداء وظيفتها وهي الرّبط في الجملة العربية، فلو نأخذ مثلاً حرف (الواو) الذي عدّه سيبويه للجمع والضّمّ مطلقاً¹⁸؛ أي ضمّ كلمة إلى أخرى أو جملة إلى أخرى، سنجد أنه قد غيّر مساره الدّلالي في بعض السياقات ليدلّ على معنى الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (1) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (2) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النّازعات: 1-5].

والسؤال المطروح ههنا هو لماذا هذا العدول انتقالاً من الواو إلى الفاء؟ مع العلم أنّ الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، أي تجعل الشّيء في إثر بعض، وهذا ما دلّت عليه الآية الكريمة في وصف أصناف الملائكة؛ فطائفة تترع الأرواح من الأجساد، وطوائف تخرجها، وأخرى تسبح في مضيّها لتنفيذ ما أمرت به، وهذه الطائفة الأخيرة «هي طائفة توصف بثلاث صفات متتابعة وهي السّبح والسّبق والتّدبير، لذلك عطف بين صفاتها هذه بـ (الفاء)، وعطف بين ذوات هذه الطوائف المختلفة بـ (الواو)»¹⁹، فدلّت

¹⁷ - ينظر: محمّد نسيم فاضل: التّضمن التّحويّ في القرآن الكريم، دار الزّمان للنشر، المدينة المنورة، المملكة العربية السّعودية، 1426هـ - 2005م، ط1، ج1، ص 60.

¹⁸ - ينظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط2، ط2، 1988م، ج4، ص 216.

¹⁹ - علي عبد الله علي المتاري: الإعجاز البياني في العدول التّحويّ السّياقي في القرآن الكريم، دار الكتاب الثّقافي، إربد -الأردن، 2008م، ص 160.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

بذلك الفاء على تعاقب هذه الصّفات وتتابعها، بينما اختصّت (الواو) لعطف الدّوات، وهذه الدّقائيق اللّغوية لم يستأنس لها الدّرس التّحوي قديماً، لهذا كانت أفكاره تقوم على التّعميم، دون الاهتمام بالمفارقات الدّلالية لتمايز المعنى بين هذه الحروف من سياق إلى آخر.

ولا يزال محمّد الخضر حسين الجزائري مدافعاً ومسانداً لآراء النّحاة القدماء في تصنيفاتهم لموضوعات النّحو عندما ينتصر إلى آرائهم في باب التّوكيد، الذي رآه إبراهيم مصطفى خلافاً منهجياً في توزيعه بين التّوابع والتّقي، كما ذكر نُوني التّوكيد في باب الفعل داعياً إلى جمعها جميعاً تحت باب واحد يسمّى (أساليب التّوكيد في العربية)، بينما يؤكّد محمّد الخضر أنّ التّحويين لم يخطئوا في تصنيفهم هذا، ولو عملوا لتوحيد هذا الموضوع في بوتقة واحدة لتعرّضوا للتّكرار، وصعب عليهم ذلك تقصّي معانيها، ولتشتت الكلام وغابت الفصاحة²⁰.

إنّه يؤكّد بهذا إبطال دعوى "مصطفى إبراهيم" بأنّهم حرّموا أنفسهم، أو حرّموا أتباعهم من الاطّلاع على كثير من أسرار العربية، بينما الحقيقة -من منظور محمد الخضر- أنّهم قد قطعوا أشواطاً في البحث عن فقه الأساليب ودقائق التّصوير، وبلغوا فيها غايات بعيدة، ودليل ذلك دقّتهم التّصنيفية لموضوعات علم النّحو، واجتهادهم في سبيل عدم تعدّي حدوده، وهذا للفصل بينه وبين علم الصّرف من جهة، وعلم اللّغة وفقهها، أو علوم البلاغة من جهة ثانية، إذ يؤكّد أنّ لكلّ واحد من هذه العلوم خصوصياته البحثية التي تميّزه عن غيرها.

ومن أسرار العربية التي اهتمّ بها النّحاة القدماء وعارضها إبراهيم مصطفى موضوع الحركات الإعرابية التي ترجع إلى علل وأسباب، والتي أصبحت تُعرف فيما

²⁰ - ينظر: محمد الخضر حسين: المصدر السّابق، ص 195-196



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

بعد — "علل النّحو"، بينما أكّد محمّد الخضر حسين أهمّيّتها في اللّغة العربية، فهي معلّمة بارزة من معالم أصول النّحو التي لا يمكن إغفالها، نظرا لأهمّيّتها التّعليمية في استنباط القواعد النّحوية.

وعلل النّحو قُسمت عند القدماء إلى ثلاثة أقسام: التّعليمية: وهي التي يتوصل بها إلى تعلّم كلام العرب، ومنها القياسية: التي تعتمد على القياس في استنباط القاعدة، كقولهم لم وجب أن تنصب (إنّ) الاسم؟ والجواب لأنّها وأخواتها شابهت وضارعت الفعل المتعلّي الذي ينصب مفعوله فحُمِلت عليه وعملت عمله، وأما العلة الجدلية فتقوم على منطق المسألة الذي لا ينتهي حتى يصل إلى الجدل الذي لا طائل منه⁽²¹⁾.

يتّضح ممّا سبق ذكره، أنّ علل النّحو عند شيخ الأزهر يمكن النّظر إليها من زاويتين؛ زاوية إيجابية تتمثّل في القسمين الأوّلين: (التّعليمية، والقياسية) فهما مهمّتان في استقراء كلام العرب، ومعرفة العامل والمعمول، ناهيك عن أهمّيّتهما في وضع القواعد النّحوية التي تساعد المتكلّمين على الابتعاد عن اللّحن. أمّا الزّاوية السّلبية فتتمثّل في الصّنف الأخير (العلة الجدلية) القائمة على الجدل الذي يولّد بدوره جدلا لا طائل منه.

نستنتج ممّا سبق ذكره أنّ منهجية التّصنيف وتبويب موضوعات النّحو عند علماء النّحو، منهجية موفّقة من منظور محمّد الخضر حسين، وذلك لأنّها تحتكم إلى أسس علمية لا مناص من الجدل فيها، فضلا عن كون هذه التّقسيمات عند النّحاة تتّكئ على الجانبين الشّكليّ والدّلاليّ في عملية التّبويب، وهذا هو المطلوب في معرفة أصول النّحو من تفرّعاته.

3.3 التّضمين

²¹ - أبو القاسم الزجاجي (ت 337هـ): الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1979م، ص 64-65.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

التّضمين ركن من أركان المسائل اللّغوية التي اهتمّ بها اللّغويون، وعقدوا لها أبواباً في مصنّفاتهم، فهو ضرب من ضروب التّوسّع في اللّغة؛ فقد يؤدّي حرف معنى حرف آخر، كما قد تنتقل وظيفة الفعل اللّازم إلى التّعدي، كما قد يأخذ الاسم معنى اسم آخر في سياق معيّن. لهذا فقد كان التّضمين التّحوي من محاور اهتمامات شيخ الأزهر دون التّضمين البيانيّ، والتّضمين البديعي اللّذين كانا من اهتمامات البلاغيين والنّقاد، وقد أفرد له بحثاً لغوياً ألقاه الإمام محمّد الخضر حسين في "مجمع اللغة العربيّة" بالقاهرة، وتمّ نشره في مجلة (الهداية الإسلاميّة) في الجزء الخامس من المجلد السابع سنة 1353هـ - 1934م، وأعيد نشره في هذا الكتاب الذي بين أيدينا (دراسات في العربيّة وتاريخها).

لقد عدّ محمد الخضر حسين التّضمين من المباحث التّحوية إذ يقول: «للتّضمين غرض هو: الإيجاز، وللتّضمين قرينة هي: تعدية الفعل بالحرف، وهو يتعدّى بنفسه، أو تعديته بنفسه، وهو يتعدّى بالحرف»²²، ثمّ يؤكّد أنّ للتّضمين شرط وهو وجود مناسبة بين الفعلين، فإذا لم توجد بين الفعلين العلاقة المعتبرة في صحّة المجاز، كان التّضمين باطلاً.

ويبدو أنّ هذا التّوجّه الذي سار عليه هذا العالم الجليل كان مخالفاً تماماً لما عرفه الدّرس البلاغيّ العربيّ، الذي يقدّم لنا مفهومي التّضمين البلاغيّ، أحدهما بيانيّ والآخر بديعيّ؛ يختصّ الأوّل بتضمين لفظ معنى آخر، ويختصّ الثاني بأخذ شاعر من شاعر آخر بيتاً أو بعض بيت من الشعر²³. كما يضيف الدّارسون إلى هذين التّوعين التّضمين العروضي الذي يعني عندهم (ما لا يتمّ معناه إلّا بالذي يليه) من أبيات الشّعر.

²² - محمّد الخضر حسين: المصدر السّابق، ص 212.

²³ - ينظر: أحمد حسن حامد: التّضمين في العربيّة بحث في البلاغة والتّحوي، دار الشروق، عمّان - الأردن، والدار العربيّة للعلوم بيروت - لبنان، ط1، 2001، ص 5.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

لقد آثر هذا العالم الجليل أن ينظر إلى التّضمين من زاوية نحوية محضة؛ إذ أجرى معنى الفعل اللازم وجعله متضمّناً للفعل المتعدي، إذ يُستعمل مع إرادة معنى المتضمّن، وهكذا يكون الغرض من التّضمين هو الإيجاز بدل الإطالة، ما دام غرضه هو إعطاء مجموع معنيين، وهو أقوى من إعطاء معنى واحد. ليكون التّضمين بذلك هو إشراب معنى فعل لفعل آخر، كما جاء في تعريف التّضمين بأنّه: "إشراب كلمة معنى كلمة أخرى فتؤدّي وظيفتها في التّركيب"²⁴؛ فالفعل اللازم قد أشرب معنى الفعل المتعديّ، سواء أكان الفعل متعدياً بنفسه أم متعدياً بغيره من الأدوات المساعدة.

وقد ألمع صاحب "دراسات في العربية وتاريخها"، إلى أهميّة التّضمين في الخطاب العربي الفصيح، وكذا في الخطاب العامي، غير أنّ توظيفه ليس واحداً فيهما، وهذه الرؤية مبتكرة لديه لم يقل بها معاصروه، فالتّضمين الصّحيح عنده إنّما يكون صادراً ممّن شأنه العلم بوضع الألفاظ العربية، ومعرفة طرق استعمالها وقد استشهد بقول سعد الدّين التّفنازي الذي قدّم مثالا في هذا الشّأن بقوله: «فشمّرت عن ساق الجدّ إلى اقتناء ذخائر العلوم»²⁵، فهذه المقولة تضمّنت الفعل (شمّرت) الذي لا يتعدّى، ولكن القائل عدّاه لأنّ الفعل (شمّر) ضمّن معنى (الميل)، الذي هو سبب التّشمير عن ساق الجدّ. وهذا يدلّل على أنّ الكلام الفصيح قد خرج عن الأصل إلى ضرب من ضروب الاتّساع الدّلاليّ بغاية مراعاة مقتضيات السّياق، ومن ثمّ يحقّ للقائل تعدية الفعل بسبب اكتسابه للدّلالة الجديدة، التي ستخرجه من خانة اللّزوم نحو التّعدّي، بينما لا يكون هذا التّضمين صحيحاً لو صدر الكلام من شخص عامي لم يضع كلامه على مراعاة فعل آخر مناسب للفعل الملفوظ من حيث دلّالته، وهنا وجب الحكم عليه بالخطأ.

²⁴ - المرجع نفسه، ص 43.

²⁵ - محمّد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، ص 213.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

وختم هذا العالم الجليل مبحثه بالتأكيد على أنّ للتّضمين صلة بقواعد الإعراب من جهة تعدّي الفعل بنفسه، أو تعدّيه بالحرف، كما أنّ له في المقابل صلة بعلم البيان من جهة التّصرف في معنى الفعل²⁶؛ أي إنابة فعل مكان فعل آخر للوقوف به عند حدّ ما وضع له، وهذه خاصيّة تركيبية يمكن إيجادها عند خاصّة الناس ممّن يتقنون اللّسان العربي الفصيح، كما نجدّها عند عامّتهم ممّن يجهلون قواعد وخصوصيات هذه اللّغة. والذي يُؤخّذُ على المؤلّف هو عدم التزامه بتوضيح فكرة "الإيجاز" التي قال بأنّها الغرض الأساسيّ للتّضمين، واكتفى بذكرها في أوّل مبحثه دون شرح أو تمثيل، وهو العارف بالبلاغة العربية، ويدرك تماما أنّ الإيجاز يطلق على أداء المعنى الكثير باللفظ القليل بشرط أن يكون المخاطب عالما بالمعنى الذي يخبره به المتكلّم بالسّليقة. ويبدو أنّ شيخنا قد أهمل مسألة في غاية الأهميّة، وهي العُرف اللّغوي الذي يكون رابطا قويّا بين المتكلّم والمخاطب في فهم حالات التّجوّز والانتساع التي تحدث في اللّغة، بغضّ النّظر عن كونها عاميّة أو فصيحّة، فالكفاية اللّغوية المشتركة بينهما هي المكوّن الأساسي الذي سيساعدهما على فهم بعضهما البعض سواء أ كان الخطاب موجزا أم مُعرّقا في الإطناب. خلاصة ما سبق ذكره، أنّ موضوع التّضمين عند محمّد الخضر حسين يتقاطع مع الفكر اللّغوي التّراثي، خصوصا مع ما جاء به صاحب "الخصائص" حول موضوع التّوسّع في نيابة الحروف بعضها من بعض، لأنّ معاني أفعالها المتّصلة بما تكاد تكون متطابقة، وفي هذا يقول ابن جنّي: "اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بحرف آخر فإنّ العرب قد تتوسّع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيدائنا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء بالحرف المعتاد مع ما هو

²⁶ - محمّد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها، المصدر نفسه، ص214



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

في معناه²⁷؛ ومثّل في ذلك بآيات من الذّكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ تَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، فالفعل (رفث) فعل يتعدّى بحرفي الجرّ: الباء أو مع، فلا يصحّ قولنا: (رفثت المرأة)، ولكن الصّواب أن نقول: (رفثت بها أو معها). وقد تعدّى الفعل في التّصّ القرآني بحرف الجرّ (إلى) لأنّه أنسب للفعل (رفث) بمعنى الإفشاء؛ وقد جيء بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه. وتوجد أمثلة كثيرة في هذا الباب جعلها ابن جنّي فصلاً من فصول العربية اللّطيفة الحسنة، التي يدعو إلى الأنس بها، والفقاهة فيها.

4.3 حول تبسيط قواعد التّحو والصّرّف والرّدّ عليها

شكل موضوع "تيسير التّحو" وتحديثه وإصلاحه وإحيائه حركة فكرية انطلقت مع بوادر النّهضة العربية، وغاية مؤسّسي هذه الحركة تحقيق أهداف تعليمية اقترنت بانتشار التّعليم وتعميمه، ولعلّ أوّل المحدثين الذين أسّسوا لهذا الطّرح هو إبراهيم مصطفى في كتابه "إحياء التّحو" سنة 1937م، لكنّ جذورها تمتدّ إلى القرن الثّاني الهجري مع ظهور بعض المختصرات، كمقدّمة في التّحو لخلف الأحمر (ت180هـ)، ومختصر في التّحو للكسائيّ (ت189هـ)، والجمال للزّجاجي (ت337هـ)، والأنموذج في التّحو للزّحشرّي (538هـ)، وهذه الثّورة قد اشتدّت مع ابن مضاء القرطبيّ في كتابه "الرّدّ على النّحاة" حيث

دعا فيه إلى إلغاء القياس والعلل التي أدّت إلى الغموض وعدم الوصول إلى المعنى، وقد امتدّت هذه الحركة حتّى وصلت إلى أيام النّهضة الفكرية العربية.

²⁷ - ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمّد علي التّجّار، المكتبة العلمية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ج2، ص 308.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

يذهب محمد الخضر حسين الجزائري في هذا المبحث إلى الرّد على آراء الحركة التّيسيرية للنّحو التي تبنتها في العصر الحديث اللّجنة التي ألفها هي الدّين بركات، عندما تولّى وزارة المعارف في مصر، وجعل غايتها الأساسية هي التّظّر في تبسيط قواعد النّحو والصّرف والبلاغة، واللّجنة مكوّنة من: طه حسين، أحمد أمين، علي الجارم، محمد أبي بكر إبراهيم، وإبراهيم مصطفى، وهذا في مباحث نحوية متعددة منها:

أ-باب الإعراب: ترى اللّجنة وجوب الاستغناء عن الإعراب التّقديري الذي يشوّش على تفكير التّلميذ في فهم القاعدة، كذلك الإعراب المحلّي (مثل: يا سيّويه): مبني على ضمّ مقدّر منع من ظهوره حركة البناء الأصلي في محل (نصب) وفيه من العناء المضاعف والجهد المبذول لغير فائدة²⁸.

أكّد محمد الخضر حسين من خلال مقولته السّابقة أنّ اهتمام النّحاة بالإعراب التّقديري والمحلّي يرجع أساسا إلى أنّ الكلمات التي تعتمد هذين التّمطين من الإعراب تخضع لشروطين أساسيين:

* وقوعها مسندا إليه، ومن ثمّ فهي من قبيل المرفوعات.

* عدم قبول حروفها الأخيرة لحركة الضّم، جعلهم يقولون أنّ الضّم مقدّر: أي منوي وملاحظ.

وعليه، أبرز أهمّية هذه الأنماط الإعرابية في اللّغة العربية، فلا يمكن الاستغناء عنها لأهمّيتها في تبيان وظيفة الكلّم، ناهيك عن استخدامها في أبواب نحوية أخرى، كالمقصور، والمضاف، والمبني، والجمل ذات المحلّ الإعرابي.

²⁸ - ينظر: محمد الخضر حسين: دراسات في اللّغة العربية وتاريخها، المجلّد 10، ص 251-252



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

ب- الأساليب: اختارت اللّجنة أسلوب التعجّب للدراسة والتّقييم، وأنكرت على القدماء توسّعهم في إعرابها مما جعله معقّداً، واقترحت إعراباً مبسّطاً، فمثلاً يقولون في إعراب جملة: (مَا أَحْسَنَ): صيغة تعجّب، والاسم بعدها المتعجّب منه مفتوح²⁹. لم يقبل "محمد الخضر حسين"، هذا المقترح وشكّك في إعراب اللّجنة، وأقرّ بإعمالها لإعراب صيغة التعجب «إذ أقلّ ما يجب في إعراب الجملة أن يبيّن فيها الموضوع (الفعل) والمحمول (الفاعل)، وإعراب جملة التعجب على الوجه الذي ذكرته اللّجنة لم يبيّن فيه الموضوع، ولا المحمول»³⁰. فهذا -من منظوره- يعدّ إخفاقاً في الوقوف على عناصر الجملة الأساسية التي تنبني أساساً عند النّحاة على ثنائية (المسند والمسند إليه)، وهما متلازمان؛ فوجود أحدهما يتطلب بالضرورة وجود الآخر، فوجود الفعل يتطلب وجود الفاعل، وهكذا، وعليه لا يصحّ -من وجهة نظره- عدم الفصل بين (ما) و(أحسن) عند إعرابها وجعلها كلمة واحدة، ففي قولنا مثلاً: مَا أَحْسَنَ الْقَمَرُ يكون الإعراب الصّحيح كالآتي:

- ما: نكرة تامّة تعجّبية بمعنى شيء، مبني على السّكون في محلّ رفع مبتدأ.

- أَحْسَنَ: فعل ماضي مبني على الفتح للتعجب، والفاعل ضمير مستتر.

- الْقَمَرُ: مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره. والجملة الفعلية (أَحْسَنَ) في محلّ رفع خبر للمبتدأ (ما).

ومنه فإنّ التّلازم قد تحقّق بوجود ركنين أساسيين في الجملة العربية، وهما المسند والمسند إليه، يتمثّلان في المبتدأ والخبر. وعليه، لا يمكن الفصل بينهما، وهذا هو الصّواب بعينه الذي يؤكّده شيخ الأزهر، والذي دفعه إلى الإيمان برأي القدماء والانتصار إليه.

²⁹ - ينظر: المصدر نفسه، ص 271.

³⁰ - محمد الخضر حسين: دراسات في اللّغة العربية وتاريخها، المجلد 10، المصدر السّابق، ص 271.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

تلخيصا لهذه الأفكار نوّكد أنّ الحركة التّجديدية للنّحو العربيّ التي نادت بها اللّجنة، كانت آراؤها مرفوضة رفضا قاطعا من طرف عالمنا الجليل، خصوصا في موضوعي الإعراب بشقيّه (التّقديري، والحلّي) والأساليب؛ وهذا لأنّ أفكارها قد أفرغت النّحو كعلم قائم بذاته من أهمّ مضامينه التّأصيلية، فضلا عن كون هذه اللّجنة قد تجاوزت حدودها العلمية عندما شكّكت في الأهداف التّعليمية التي رسمها النّحو العربي لمتكلّمي العربية.

5.3 الإمتاع بما يتوقّف تأنيثه على السّماع:

وضع محمّد الخضر حسين الجزائري معجما صغيرا (رسالة) في الكلمات المؤنّثة التي قال بها الأئمة الأوائل، متحقّقا فيها مما يجوز فيه التذكير والتّأنيث، وفي هذا يقول: «فهذه رسالة في الألفاظ المؤنّثة سمعا، جمعتها مرّبة على حروف المعجم؛ لتكون تذكرة لي ولمن شاء أن يذكر بها الكتاب والأدباء بعدي»³¹، معلنا فيه عن الكلمات المؤنّثة وجوبا أو جوازا باتّفاق، أو على أحد الأقوال دون أن يقدّم وجهة نظره الخاصّة. وتمثّل لذلك بقوله: «(الهدى): ابن سيده: الهدى: ضد الضّلال، وهو الرّشاد، والدلالة، أنثى، وقد حُكي فيه التذكير، وأشار صاحب (القاموس) إلى وجهي التذكير والتّأنيث بقوله: ويذكر»³².

ولم يتوان المؤلّف في إضافة معلومات أخرى لهذا الموضوع في كتابه الثّاني الموسوم (دراسات في اللّغة)، إذ أضاف مبحثا ختم به كتابه بعنوان "الألفاظ المؤنّثة من طريق السّماع"، الذي ضمّنه تعليقاته وآرائه حول قصيدة في الأسماء المؤنّثة لابن الحاجب

³¹ - محمّد الخضر حسين، المصدر نفسه، المجلد 10، ص 273

³² - محمد الخضر حسين: دراسات في اللّغة العربية وتاريخها، المصدر السّابق، مج 10، ص 293



الدرس التحوي عند الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

(ت646هـ)، وقصد بها تلك الأسماء التي عددها مع غياب تام لعلامة التأنيث فيها فلنقرأ
معا هذا المقطع الشعري³³:

أَمَّا الَّذِي لَا بُدَّ مِنْ تَأْنِيثِهِ ستون شبه العين والأُذُنَانِ
وَالنَّفْسُ ثُمَّ الدَّارُ ثُمَّ الدَّلْوُ مِنْ أَعْدَادِهَا وَالسِّنُّ وَالْكَتِفَانِ
وَجَهَنَّمُ ثُمَّ السَّعِيرُ وَعَقْرَبُ والأَرْضُ ثُمَّ الْأَسْتُ وَالْعَضْدَانِ

يتبين لنا وهنا أنّ محمد الخضر حسين كان من علماء اللغة الذين اعتمدوا الجمع
والتصنيف أساسا منهجيا في تبويب الأسماء المؤنثة، فأثبت لنا قدرته على الاستقصاء مع
تبيان اختلاف علماء اللغة حولها، ولكنه في المقابل كان سلبيا في هذا، فهو لم يقدم لنا
وجهة نظره حولها، وإلى أيّ الفريقين كان ينتمي.

6.3 نيابة بعض الحروف عن بعض:

هذا العنوان هو بحث قدّمه الإمام في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ونشره في
الجزئين السادس والسابع من المجلد السابع لمجلة الهداية الإسلامية، إذ يتّجه "محمد الخضر
حسين الجزائري" في مبحثه هذا إلى تقصّي آراء بعض اللغويين التي شابها الخطأ في تسمية
الأشياء بمسمياتها، منتقدا بعض وجهات النظر ومقدّما لبدائل لها، فبدأ حديثه عن معاني
الحروف، حيث إنّ للحرف الواحد عدّة معانٍ بحسب السياق الذي يرد فيه، فقد يدلّ
على السببية أو الظرفية أو الاستعانة، فكان صنيعهم هذا من باب المشترك اللفظي وهو
اللفظ الدال على معنيين فأكثر.

ثم يقرّر بأنّ بعض هؤلاء العلماء اللغويين وعلى رأسهم ابن هاشم، ونجم الدين
الرّضي، والسكاكي وغيرهم، قد أدركوا الخلل في هذا التوسّع غير المسبوق لمعاني

³³ - ينظر: محمد الخضر حسين: دراسات في اللغة، موسوعة الأعمال الكاملة، مج11، دار النوادر،
سورية، ط1، 2010م، ص148 وما بعدها.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

الحروف، وأقرّوا بأفضلية أن تكون معاني الألفاظ المشتركة قليلة؛ فإنّ قلّتها أعدل على حسن البيان.

يخطئ بعدها صاحب كتاب (دراسات في اللغة) بعض النّحاة الذي قالوا: «إنّ حروف الجرّ ينوب بعضها عن بعض» كأن يقولوا أنّ (في) تأتي بمعنى (إلى) أو بمعنى (الباء)، وقال أنّ هذا الكلام لا يجوز لأنّه يؤدّي إلى لبس القول لما في إطلاق هذه العبارة من الفساد، وفي هذا يقول: «تسمّعهم يقولون: إنّ (في) -مثلا- تكون بمعنى (إلى)، أو تكون بمعنى: (الباء)، فتريد أن تذهب بذلك مذهب القياس، فتقول بدل (سرتُ إلى البحر) سرتُ في البحر، أو تقول بدل (بعته بدرهم): (بعته في درهم). وإذا مشيت على هذا الوجه من القياس، وقعت في لبس من القول، وأتيت بجمل تنبو عنها الفطرة العربية»³⁴.

واستشهد لإثبات ذلك بمقولة لابن جنّي الذي رفض أن يقول النّحاة عبارة «إنّ الحروف يستعمل بعضها في مكان بعض»، ونّبّه لما في إطلاق هذه العبارة من فساد، وأقرّ بوجوب القول بأنّ الحرف يكون بمعناه في موضع، دون موضع على حسب الحالة الدّاعية إليه، والمسوّغة له³⁵. فلا يصحّ مثلا قولهم: سرتُ إلى زيد، وأنت تريد أن تقول: سرت معه. كما لا يصحّ قولهم: زيد في الفرس، ويريد: عليه. فهذا من شنيع القول وفاحشه عند ابن جنّي.

وأرجع محمد الخضر مردّ صحّة رأي ابن جنّي إلى أنّ الحروف لا تستعمل إلاّ في معانيها الشّائعة في كلام الفصحاء، وإذا ما تبين للمتلقّي أنّ حرفا قد أناب حرفا آخر،

³⁴ - محمّد الخضر حسين: دراسات في اللّغة، المصدر السّابق، ص 30-31.

³⁵ - ينظر: ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، المصدر السّابق، ج 2، ص 308 وما بعدها.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

فهذا من باب التّضمن وهو من المباحث البلاغية التي قال بها علماء اللغة وعلى رأسهم سيبويه، الذين يجعلون للفعل معنى مع الحرف، ومعنى مع غيره، ولا يقيمون الحرف مقام الحرف.

كما أنّ الحرف لا يستعمل مكان آخر -من منظور شيخ الأزهر- إلاّ على وجه الاستعارة³⁶، وعليه فقد دعا المؤلّفين في العربية أن يقتصروا في بيان معاني الحروف على المعاني الحقيقية فقط، فإنّ تجاوزوها إلى المعاني المجازية فعليهم أن يتوخّوا الحذر في ذلك حتى لا يقعوا في الخطأ.

هذا تأكيد من العالم الجليل محمّد الخضر حسين -من خلال انتقاده لبعض آراء النّحويين- على أنّه ينتمي إلى فئة اللّغويين القائلين بعدم التّوسّع في الحديث عن معاني الحروف، لأنّ هذا التّوسّع قد يؤدّي إلى فساد معانيها الحقيقية التي وضعت لها في الأصل؛ فبعض اللّغويين في تحليلهم لمعاني الحروف والتّوسّع فيها، حتّى أفقدوا الحروف دلالاتها الحقيقية، وكان حريّ بهم أن يتحرّوا الدّقة في الكشف عن هذه المعاني، لأنّهم أضاعوا بذلك جواهرها حسّاناً كان يفترض بهم معرفتها، والتّدقيق في مضامينها.

7.3 نقد إعرابين جديدين في صيغة التّحذير:

يعدّ (التّحذير) في اللّغة العربية من الصّيغ المستعملة بغاية تنبيه المخاطب لأمر مكروه ليجتنبه، ويسمّى الأمر المكروه الذي يقع عليه التّحذير (المُحذّر منه)، قال عنه ابن مالك (ت 672هـ) في الألفية:

³⁶ - ينظر: محمد الخضر حسين: دراسات في اللغة، المصدر السابق، ص 32.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

(إِيَّاكَ وَالشَّرَّ) وَنَحْوُهُ نَصَبٌ مُحَذَّرٌ بِمَا اسْتَبَارَهُ وَجَب³⁷

فالتّحذير عنده هو «إلزام المخاطب الاحتراز من مكروهه بـ (إِيَّاكَ)، أو ما جرى مجراه». وقال ابن هشام (ت 761هـ): «هو تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ عَلَى أَمْرٍ مَكْرُوهٍ لِيَتَجَنَّبَهُ»³⁸. ويأتي أسلوب التّحذير على عدّة صور؛ منها الأفراد ويكون بذكر المحذّر منه دون تكرار أو عطف، مثل: النار، وقد يكون ذكر المحذّر منه اسما ظاهرا مكرّرا أو معطوفا عليه نحو: البرد أو البرد والمطر، أو ذكر المحذّر ضميرا منصوبا للمخاطب هو (إِيَّاكَ) وفروعه وغيرها من صور التّحذير المشهورة³⁹.

ونظرا لهذه الأهمية التي يحظى بها هذا الأسلوب في اللغة العربية، فقد أولاه شيخنا الخضر أهمية خاصّة في مبحثه هذا، عندما توجّه لنقد مقال تمّ نشره في إحدى المجلّات وسم: "إعرابان جديدان في صيغة التّحذير"، حيث نبّه كاتب المقال إلى تقديم تأويل إعرابيّ جديد يخالف ما تقدّم به النّحاة الأوائل حول إعراب صيغة التّحذير.

فقد اعتبر صاحب المقال أنّ (الواو) الدّاخلية على المحذّر منه في قولهم مثلاً: (إِيَّاكَ والأسد)، زائدة وليست من باب العطف، كما قال القدماء، لأنّه يمكن حذفها، فردّ عليه

³⁷ - ابن مالك الأندلسي، أبو عبد الله محمد جمال الدّين بن عبد الله: ألفية بن مالك في النّحو والتّصريف المسماة الخلاصة في النّحو، تحقيق: سليمان بن عبد العزيز بن عبد الله العيّوني، مكتبة دار المنهاج، الرياض-السّعودية، 1438هـ، ص146.

³⁸ - ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله جمال الدّين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، تحقيق: محمد محي الدّين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ج1.

³⁹ - ينظر: علي بن عامر علي الشّهري: أسلوب التّحذير بين الدّرس التّحوي والواقع اللّغوي، مجلّة جسور المعرفة، العدد 10، جوان 2017، ص43



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

الشيخ محمد الخضر حسين بقوله: «فلا يصحّ لأحد أن يدّعي زيادة كلمة في صيغة من صيغ الكلام، إلّا حيث يعجز النَّاس عن أن يذكروا لها معنى يلائم الغرض الذي صيغ له الخطاب»⁴⁰، وأكّد في ذلك أنّ التّحويين قد فهموا من صيغة التّحذير أنّ الواو عاطفة، وذكروا في تقدير عامل التّصب وجها يلائم العطف، ودليله في ذلك هو أنّ صرف الواو إلى الزّيادة مع إمكان بقائها عاطفة خروج عن الأصل.

واستدلّ في رأيه بآيات من الذّكر الحكيم لم تجئ فيها الواو زائدة بل عاطفة من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزّمر: 73]. ففي هذه الآية الكريمة حذف جواب إذا، وجاءت الجملة بعده معطوفة على ما قبلها.

نخلص أخيرا إلى القول أنّ عالمنا قد انتصر إلى رأي القدماء في إعراب صيغة التّحذير، رافضا للرّأي الذي دعا إليه أصحاب تيسير النّحو، وسبب ذلك مردّه إلى نظرهم القاصرة في فهم دقائق معاني الحروف المتّصلة بالتّحذير، ناهيك عن اختصارهم المعيب في إعراب هذه الصّيغة.

4. القياس في اللغة العربية:

مثّل موضوع "القياس" في اللغة العربية أحد أهمّ الموضوعات التي ناقشها "محمد الخضر حسين"، حيث أفرد لها كتابا خاصّا، وقد دفعه إلى هذا التّأليف وقوفه على دراسة علم العربية وملاحظته لتلك الاختلافات في الأحكام التي كان يصدرها العلماء حول مسائل نحوية يقصرها بعضهم على السّماع، ويرأها آخرون من مواطن القياس، فدفعه هذا إلى البحث عن أصولها وفي هذا يقول: «فأخذت أوجّه نظري إلى الأصول العالية التي يُراعوها في أحكام السّماع والقياس؛ حتى ظفرت بقواعد وقفت على جانب منها في

⁴⁰ - محمد الخضر حسين: دراسات في اللغة، سلسلة موسوعة الأعمال الكاملة، الجزء 11، ص 116.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

صريح كلامهم. وأملت بجانب آخر من طريق النّظر في مجادلاتهم وأساليب استدلالهم»⁴¹.

وقد أشار صاحب الكتاب بعدها إلى أهمية القياس في صيغ الكلّم واشتقاقها، وما يعرض لها كالّتقديم والتّأخير، والاتّصال والانفصال، والإعراب والبناء، والحذف والذّكر وغيرها، ثم حدّد أنواعه التي لا تزيد عن أربعة نلخصها في الآتي⁴²:

أ/التّشابه في الحكم على بعض الكلمات: حيث حمل العرب أنفسهم على إعطاء بعض الكلمات حكما يشبه حكم كلمات أخرى لوجه يجمع بينها (المشابهة)، مثال ذلك إعراب الفعل المضارع قياسا على الاسم لمشابهته له في احتماله لمعانٍ لا يتبيّن المراد منها إلا بالإعراب، ونصبت (لا) النافية للجنس الاسم ورفعت الخبر قياسا على (إنّ) لمشابهتها إياها في التوكيد، فإنّ (لا) تأتي لتأكيد النّفي، كما تأتي (إنّ) لتوكيد الإثبات.

ب-قياس معنى على معنى آخر لتحقيق الاشتراك اللفظي: وفيه يقول محمد حسين الخضر حسين: «أنّ تعمد إلى اسم وُضع لمعنى يشتمل على وصف يدور معه الاسم وجودًا وعدما، فتعدّي هذا الاسم إلى معنى آخر تحقق فيه ذلك الوصف، وتجعل هذا المعنى من مدلولات ذلك الاسم لغة»⁴³، فمثلا كلمة (الخمر) وصفت بهذه التّسمية لمُخامرة العنب المعصور للعقل وستره، وعليه فكل معصور يؤدي إلى السّكر فهو خمر. وهذا النوع من القياس استند إليه علماء أصول الفقه.

⁴¹ - محمد الخضر حسين: القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية - القاهرة، 1353هـ، (د.ط)، مقدّمة الكتاب، ص4.

⁴² - ينظر: المصدر نفسه، ص25-27.

⁴³ - القياس في اللّغة، المصدر السّابق، ص26.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

ج- القياس بغاية استنباط قاعدة عامّة: يعتمد هذا النوع من القياس عند علماء النّحو، لأنهم يميلون في مقارناتهم بين الكلم إلى إلحاق لفظ بأمثاله في حكم معيّن، بعد أن ثبت باستقراء كلام العرب، بحيث تُستخلص من هذا الحكم قاعدة عامة، كصغير التّصغير والتّسبب والجمع، وقد سّمّاها الباحث القياس الأصلي.

د- قياس التّمثيل: ويقوم على تقديم حكم واحد لكلمتين مختلفتين في النوع، ولكنّهما تشابهان في بعض الوجوه، ومثال ذلك جواز ترخيم المركّب المزجي قياساً على الأسماء المنتهية بتاء التّأنيث، وكما أجاز طائفة حذف الضمير المحرور العائد من الصلة إلى الموصول حتى تعيّن حرف الجرّ، قياساً على حذف الضمير العائد من جملة الخبر إلى المبتدأ، فتقول: قضيتُ اللّيلة التي وُلدتَ في سرور، أي (وُلدتَ فيها).

لقد أثر "محمد الخضر حسين" الاهتمام بالتّوعين الأخيرين (القياس الأصلي، قياس التّمثيل) لأهمّيتهما في علم النّحو؛ لأنّ الأوّل منهما يساعد على استنباط القاعدة العامة التي يمكن إسقاطها على الكلم بعد استقراء كلام العرب، وأمّا الثاني فيقوم على إعطاء الكلم حكماً مشابهاً لغيرها، رغم اختلافهما في النوع. ولتبين رأي هذا العالم فيما ذهب إليه سنفضّل القول فيهما كالآتي:

1.4 القياس الأصلي:

أكّد الباحث في معرض حديثه عن مسألة القياس الأصلي، أنّ اللّهجات العربية مثلها مثل العربية الفصحى يصحّ القياس عليها وقد استشهد في ذلك برأي ابن جنّي القائل بأنّ اللّغات كلّها حجّة. كما أنه يجب القياس على كلم القرآن الكريم وآياته مما ورد من أحكام لفظية، ما دام يمثل منتهى الإعجاز اللفظي والمعنوي على السّواء.

ثمّ يتقدّم (محمد الخضر) بحجّة الاستناد إلى الحكم القرآني والسّير في خطّه، بدل الاستناد إلى التّأويل من خلال الاستشهاد بالشّعري العربي ومنثوره، رافضاً سبيل من



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

يحيّدون عن ظاهر القرآن ويذهبون مذهب التأويل ليوافق آراءهم التّحوية، وهذا مرفوض من وجهة نظره، وفي هذا الباب يقول: «وكثيرا ما نرى التّحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريره ببيت مجهول، فرحوا به، وأنا شديد التعجّب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلا على صحّته، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحّته كان أولى»⁴⁴.

وهو في مقولته هذه يدعو إلى الاحتجاج بالقرآن الكريم لأنّه المصدر الأوّل للغة العربية، رافضا استخلاص الأحكام من كلام العرب، واتّخاذ مذهبها خصوصا ما كان منه شاذّا يحفظ ولا يقاس عليه، ثم إصدار الأحكام على آيات الخطاب القرآني تبعاً لذلك.

واستدلّ في ذلك بأمثلة منها قرار النّحاة بعدم جواز حذف (أن المصدرية) قياساً على كلام العرب، وقد خطأ مقولتهم هذه، وأكّد ارتفاع منزلة القرآن في الفصاحة، وأخذ به أحسن طرق البيان عندما حذفت (أن) في إحدى آياته، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: 24]، داعياً علماء اللغة إلى الابتعاد التعسّف في تحميل الآيات القرآنية مالا تحتمله، وصرفه عن وجهه، وتحريفه عن موضعه.

كما دعا الباحث إلى الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف والقياس عليه متبنيّاً وجهة نظر محمد بن مالك الذي أقرّ بأنّ الأصل رواية الحديث النبوي الشريف على نحو ما سُمع، خصوصاً أنّ أهل العلم قد شدّدوا في ضبط ألفاظ والتّحري في نقله⁴⁵، وهذا إذا توفّرت في هذه الأحاديث بعض الشروط:

⁴⁴ - محمّد الخضر حسين: القياس في اللّغة العربية، ص 29

⁴⁵ - ينظر: القياس في اللّغة العربية، المصدر نفسه، ص 34.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

- ما يُروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته بالحفاظ على الألفاظ كما وردت على لسان النّبي **محمد** ﷺ كقوله: (حَمِي الوَطِيسُ) أي اشتد الضراب في الحرب.

- ما يروى بقصد الاستدلال على أنّ الرّسول ﷺ كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم.

- ما يُروى لبيان أقوال كان يتعبّد بها أو أمر بالتعبّد بها كألفاظ القنوت والتحيّات وكثير من الأدعية التي يدعو بها في أوقات خاصّة.

- الأحاديث التي تتعدّد طرقها ويتّحد لفظها تصلح للاستشهاد متى كانت تلك الطرق المتعدّدة متّصلة براوٍ يُحتجّ بعبارته في الأحكام اللّغوية.

أمّا بخصوص الاستشهاد بأشعار الجاهلية فهو مقبول كأمريّ القيس وزهير بن أبي سلمى، وكذلك الأمر بالنسبة للمخضرمين الذين أدرّكوا الجاهلية والإسلام كحسان بن ثابت، ولبيد بن أبي ربيعة، والإسلاميين كالفرزدق وذي الرّمة، واستبعد الاستشهاد بكلام المولّدين لأنهم خرجوا عن مدار الفصاحة، وقد وقعوا في أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، ثم يبيّن مدى صحّة كلامه من خلال أمثلة لأبي تمام والمتنبي⁴⁶، وقد مثّل لذلك بقول المتنبي:

فإنّ يَكُ بَعْضُ النّاسِ سَيِّئًا لِدَوْلَةٍ ففِي النّاسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُولُ

ثم يعلّق على البيت الشعري قائلاً: (والصّواب في جمع بُوقٌ بُوقٌ أو أَبواقٌ). وهذا الجمع من المستجدّات المعرفية التي أشار إليها محمّد حسين الخضر، ليؤكد أنّه كان مدقّقاً حصيفاً للمسائل الدّقيقة في اللّغة، رافضاً بذلك هذا الجمع الشاذّ الذي أورده المتنبي في البيت الشعريّ وهو (بُوقَاتٌ) الذي لم يُسمع عن فصحاء اللّغة.

⁴⁶ - محمّد الخضر حسين: القياس في اللّغة العربيّة، المصدر السّابق، ص 36.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

2.4 قياس التّمثيل:

يرى محمد الخضر أن قياس التّمثيل هو نوع من أنواع القياس الذي يعتمد على إلحاق نوع من الكَلِم بنوع آخر في حُكمٍ معيّن. يقوم هذا التّوَع من القياس لدى التّحاة على مبدأ المشابهة جهة اللفظ أو جهة المعنى بين الألفاظ؛ ومثال الشّبه من جهة المعنى أن أسماء الأفعال (عليك، مكانك، أمامك)، مشابهة من جهة المعنى للأفعال (ألزم، أثبت، تقدّم)، وعليه فقد أجاز الكوفيون تقديم محمول أسماء الأفعال عليها قياسا على جواز تقديمه على الأفعال التي قامت مقامها⁴⁷. وأمّا الشّبه من جهة اللفظة أن المركّب المزجي يشابه المختوم بتاء التّأنيث في أحوال لفظية، منها حذف جزئه الثاني عند التّسب، كما تحذف تاء التّأنيث.

وهذا يعدّ من المباحث التي تقيّد بها المؤلّف في سبر أغوار التّراكيب العربية، معلنا بذلك وفائه لآراء القدماء دون مناقشة تذكر، وولائه المستمرّ لتبني أغلب أفكارهم.

5. تحليل النتائج:

توصّلت الدّراسة إلى التّنتائج الآتية:

أوّلا: اعتمد محمد الخضر حسين الجزائري المنهجية العلمية التي سار عليها قدماء علماء اللّغة، كالاستنباط، والتّحليل والمناقشة وبسط الأدلّة بغاية الإقناع، مع توثيق الأمثلة والشّواهد -على قلتها- بموضوعاتها المتّصلة بها.

ثانيا: اهتم العالم الجليل بالمصطلح التّحوي محاولا ضبطه في كثير من تحليلاته، كتّحديده لمصطلح (التّحو)، وأيضا في تفرّقه بين التّضمين البلاغي والتّضمين العروضي والتّضمين التّحوي، ثمّ تقديمه لمصطلحين جديدين هما: التّضمين الصّحيح والتّضمين الخاطئ.

⁴⁷ - ينظر: المصدر نفسه، ص75.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

ثالثا: مثّل التّضمين عند محمّد الخضر حسين أحد الطّواهر اللّغوية ذات الصّلة بقواعد الإعراب من جهة تعدّي الفعل بنفسه، أو تعدّيه بالحرف، كما أنّ له في المقابل صلة بعلم البيان من جهة التّصرف في معنى الفعل، وهذا من الأفكار الجديدة التي لم يقل بها القدماء، الذين ركّزوا على المستوى التّحويّ وأهمّلوا المستوى البلاغيّ.

رابعا: إنّ الحركة التّجديدية للتّحو العربيّ التي نادت بها لجنة تيسير التّحو، كانت آراؤها مرفوضة من طرف شيخ الأزهر، وهذا لأنّ أفكارها قد أفرغت التّحو كعلم قائم بذاته من أهمّ مضامينه التّأصيلية، فضلا عن كون هذه اللّجنة قد تجاوزت حدودها العلمية عندما شكّكت في الأهداف التّعليمية التي رسمها التّحو العربيّ لتكلمّي العربية.

خامسا: أكّد شيخ الأزهر أنّ الحروف لا تنوب عن بعضها البعض إلّا على وجه الاستعارة وفي مواقف لغوية قليلة، وعليه فقد دعا المؤلّفين في العربية أن يقتصرُوا في بيان معاني الحروف على المعاني الحقيقية فقط، فإنّ تجاوزوها إلى المعاني المجازية فعليهم أن يتوخّوا الحذر في ذلك حتى لا يقعوا في الخطأ، كما وقع بعض اللّغويين الذين دعوا إلى التّوسّع في اللّغة.

سادسا: سجّلت الدّراسة أنّ عالمنا قد انتصر إلى رأي القدماء في إعراب صيغة التّحذير، رافضا للرّأي الذي دعا إليه أصحاب تيسير التّحو، وسبب ذلك مردّه إلى نظرهم القاصرة في فهم دقائق معاني الحروف المتّصلة بصيغة التّحذير، ناهيك عن اختصارهم المغيّب في إعراب هذه الصّيغة.

سابعا: مثّل موضوع "القياس" في اللّغة العربية أحد أهمّ الموضوعات التي ناقشها "محمد الخضر حسين"، حيث أفرد لها كتابا خاصّا، وقد دفعه إلى هذا التّأليف وقوفه على دراسة علوم العربية، وملاحظته لتلك الاختلافات في الأحكام التي كان يصدرها العلماء حول مسائل نحوية يقصرها بعضهم على السّماع، ويرأها آخرون من مواطن القياس،



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

فدفعه هذا إلى البحث عن أصولها، والكشف عن خباياها، مؤيِّدا لآراء التّحاة مرّة، ومخالفا لها مرّات أخرى.

ثامنا: لقد كان محمّد الخضر حسين مقلّدا بامتياز، سائرا على خطى علماء النّحو القدماء ومتبنّيا لأفكارهم التّحوية؛ كما كان رافضا لآراء دعاة التّجديد معاديا لكلّ دعوة إلى تيسير النّحو ناهيك عن تجديده؛ ولكنّه في الآن ذاته، حاول أن يقدّم بعض الآراء المتفرّدة، التي ميّزته عن القدماء، كما ميّزته عن معاصريه؛ ممّا يؤكّد غلبة النظرة الاستشراقية لدى هذا الباحث اللّغويّ، وعمق تفكيره، وهذا يؤكّد لنا صحّة الفرضية التي انطلقنا منها في إنجاز هذه الدّراسة.

6. الخاتمة:

نستخلص من خلال معالجتنا لأهمّ الأفكار التّحوية التي تقدّم بها محمّد الخضر حسين الجزائري التونسي، أنّه قد انتصر في أغلب المسائل التي ناقشها في مؤلّفاته إلى آراء القدماء، متّخذا منها أرضية تراثية خصبة لبناء صرح النّحو في عصره، فقد كان متعصّبا للماضي، رافضا آراء بعض معاصريه الذين انتقدوا القدماء من اللّغويين من أمثال إبراهيم مصطفى. ولكنّ هذا لم يمنعه من إبراز وجهات نظر حسيّة في مسائل نحوية أخرى، ناقش عبرها آراء القدماء وانتقدها، كما فعل في موضوع نيابة حروف الجرّ بعضها عن بعض، أو في موضوع تصنيف المسائل التّحوية. كما أنّه كان معجما بامتياز في رسالته التي جمع فيها الكلمات المؤنّثة مرتّبا إيّاها على حروف المعجم، وجعلها مادّة لغوية خادمة للأدباء والمتعلّمين.

وعليه فإنّنا نوصي بالالتفات إلى مدوّنات شيخ الأزهر، وحبّذا لو أنّ الدّارسين المعاصرين من الباحثين المتخصّصين في حقل اللّسانيات ينكبّون على دراسة أفكاره اللّسانية، التي تعجّ بما كتبه ليستفيد منها الطّلبة الجامعيون، خصوصا وأنّ هذه الشّخصية



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس
غير مدروسة، ولم تُقدّم فيها أبحاث أكاديمية جادّة عدا هذه الدّراسة المختصرة التي
اجتهدنا في تقديمها.

7. المراجع والمصادر

1.7 الكتب

- القرآن الكريم برواية حفص

- 1 - إبراهيم محمود خليل: في اللّسانيات ونحو النّص، دار المسيرة، عمان -
الأردن، ط3، 2015م.
- 2- إبراهيم مصطفى: إحياء النّحو، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، (د.ط)،
2014م.
- 3 - أحمد حسن حامد: التّضمن في العربية بحث في البلاغة والنّحو، دار الشروق
—عمان—الأردن، والدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2001.
- 4- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، المكتبة
العلمية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ج2.
- 5- الزّجاجي، أبو القاسم: الإيضاح في علل النّحو، تحقيق: مازن المبارك، دار
النّفائس—بيروت، ط3، 1979م.
- 6- ابن السّراج، أبو بكر محمّد بن سهل النحوي البغداديّ: الأصول في النّحو،
تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مؤسّسة الرّسالة، ط3، (1417-1996)، ج1، ص35.
- 7- سيّويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد
السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي—القاهرة، ط2، (1402هـ—1982م)، ج4،
- 8- علي عبد الله علي الهنّاري: الإعجاز البياني في العدول التّحوي السّياقي في
القرآن الكريم، دار الكتاب الثّقافي، إربد —الأردن، 2008م.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

- 9 - ابن مالك الأندلسي، أبو عبد الله محمّد جمال الدّين بن عبد الله: ألفية بن مالك في النّحو والتّصريف المسماة الخلاصة في النّحو، تحقيق: سليمان بن عبد العزيز بن عبد الله العيّوني، مكتبة دار المنهاج، الرّياض-السّعودية، 1438هـ.
- 10 - محمد الجوادي: محمد الخضر حسين وفقه السياسة في الإسلام، دار الكلمة للنشر، القاهرة-مصر، ط1، 2014م.
- 11- محمد حسين آل ياسين: الدّراسات اللّغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت-لبنان، ط1، 1980م.
- محمّد الخضر حسين الجزائري:
- 12- دراسات في اللغة العربية وتاريخها، ضمن سلسلة الأعمال الكاملة، دار النوادر، سورية، المجلّد 10، ط1، 2010م.
- 13- دراسات في اللغة ضمن سلسلة الأعمال الكاملة، دار النوادر، سورية، المجلّد 11، ط1، 2010م.
- 14- القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية القاهرة، (د.ط)، 1353هـ.
- 15- الدّراسات اللّغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
- 16- مختارات من تراث صاحب الفضيلة الشّيخ محمّد الخضر حسين، هديّة مجلّة الأزهر المجانية لعدد ربيع الأوّل، 1422هـ.
- 17- محمّد نديم فاضل: التّضمن النّحوي في القرآن الكريم، دار الرّمان للنّشر، المدينة المنوّرة، الملكة العربية السّعودية، 2005م، ط1، ج1.



الدّرس التّحوي عند الشّيخ محمّد الخضر حسين الجزائري ----- د. شهرزاد بن يونس

18- ابن هشام الأنصاري، أبو محمّد عبد الله جمال الدّين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، ج1.

2.7 المجالات:

- 1- سعاد معمر شاوش: مفاهيم لسانية عند الشيخ محمّد الخضر حسين الجزائري - قراءة استكشافية لفكره النحوي، مجلّة اللّغة والأدب، (د.ت)، العدد29.
- 2- علي بن عامر علي الشّهري: أسلوب التحذير بين الدّرس النحوي والواقع اللّغوي، مجلّة جسور المعرفة، العدد10، جوان 2017م.